مافسد الناس ولكن اطرد القياس

للأستاذ على الجارى

« إن واجب الإنصاف يضطرنى أن أبرئ الحكومة القائمة من تهمة الخروج على العصبية الحزبية . . . لأنها لا تزال تعتقد أن من لم يكن لها فهو عليها ، وأن من لم يكن وفديا فليس مصريا »

(الزيات بك)

نظرت فى أهل دهرنا ، وحال عصرنا ، فوجدت الموازين مختلة ، والمقاييس مضطربة : موازين الرجال والأعمال ، ومقاييس الأخلاق والفضائل . لا تكاد تجد رجلا فى موضعه الطبيعى ؛ فكثيراً ما ترى إنسانا فى مكانة رفيعة ، ومركز محسود ، فإذا أحببت أن تعرف كيف وصل ، زكمت أنفك روائح كريهة من أخلاقه وسلوكه . وكثيرا ما تجد رجلا يشكو زمانه ، ويبكى حظه ، فإذا أحببت أن تعرف السر الذى قعد به ، والسبب الذى من أجله تخلف عن ركب أقرانه ، طالعتك صفحة رائعة من سلوكه وأخلاقه وعلمه وفضله

ولا شك أن قيمة الأدب هانت ، وهانت قيمة العلم ، ونزلت قيم كثير من الأشياء ، حتى الأخلاق لم تعد شيئا مذكورا فى موازين كثير من الأفراد والجماعات والأمم ، وبقى شئ واحد له قيمته ، وله خطره ، وله قدره فى وزن الرجال والأعمال ، ذلك هو (النفعة) . النفعة هى الوسيلة ، وهى الغاية وهى الدافع لكل ذى عمل إلى عمله ، ولكل ذى يد إلى أن يتخذ يده عند من يظن أنه سيردها إليه أضعافا مضاعفة . ولا أقصد - بطبيعة الحال - النفعة العامة فتلك أسطورة من الأساطير وخرافة من الخرافات ، أشبه بالغول والعنقاء والخل الوفى ، وإنما أقصد النفعة الشخصية ، تلك التى تطبع الأخلاق والأعمال والسلوك بطابعها ، فلا تكاد العين الفاحصة تخطئ من ذلك شيئا ، فلا بأس أن يبيع الأخ أخاه ، وأن يتنكر الصديق لصديقه ، وأن يطعن البرئ ، ويكرم المسئ ، لا بأس بشئ من ذلك مادام قانون النفعة هو القانون ، ولا بأس أن نجامل فى الحق ، وأن ننتصر للباطل ، وأن نرفع الوضيع ، ونضع الرفيع .. لا بأس !

هذا كله ساد وسود ، والنفوس خاضعة له مستسلمة ، فأينما وجهت نظرك لا تجد برا ولا فاجرا ، عالما ولا جاهلا ، كبيرا ولا صغيرا ، استطاع أن يجعل الأخلاق والكفاءة والإخلاص فى العمل هى المقياس

كن أنحى من سيبويه ، وأفقه من الشافعى ، وأنفذ بصرا من ابن سينا ، وأنور بصيرة من الحسن البصرى ، وكن بجانب ذلك صريحا فى الحق ، لا تخشى فى الله لومة لائم ، ولا تداهن ولا تتملق ثم ثق من أنك ستموت جوعا

وكن على ما شئت من خلق سئ ، وخذ حظك وافرا من الجهل ، وقسطك وافيا من الغباء ، ولكن صانع الرؤساء وعلق الكبراء ، وكن أداة طيعة فى يد من يريد ، ثم ثق أنك ستحيا حياة طيبة ، وستنعم بموفور النعم ، ورغد العيش ، وستراس أقرانك ، وتقلب نظراءك ، وتصل إلى أرفع المناصب

رأيت كل هذا ، وسمعت بكثير مثله ، لا يخلو منه بلد من البلدان ، ولا يتورع عنه رئيس من الرؤساء . ثم رجعت إلى بطون التواريخ أتعرف أحوال تلك الأزمان ، وأبحث فى سلوك الماضين ، وحظوظهم ، فرأيت عالم العربية الأكبر الخليل بن أحمد مخترع علم أوزان الشعر ، وواضع أصول فن الموسيقى ، ومبتكر أول طريقة لوضع المعاجم العربية ، وصاحب الفضل الأكبر على النحو العربى ، رأيته يسكن فى خص ، ويعيش على كسر الخبز اليابسة الجافة ، لأنه لم يتصل بأمير أو وزير ، ثم رأيت الناس يأكلون بعلمه لباب البر يجنى النحل !

وخطوت إلى الأمام خطوة فإذا أديب العربية الأكبر أبو عثمان الجاحظ يشكو مما نشكو منه ، ويكتب رسالة لأحد أصدقائه ، يتمى فيها على دهره ، ويألم لقلة من يثق به من الناس لاستحالة الزمان ، وفساد الأيام ، ويبكى على الماضى حين كان الصدق والحياء ، وإيثار الحق مطية السلامة . وسبب النعمة ، ولكن الحال تتحول ، والدولة تتبدل ، فيصبح (الحياء متصلا بالحرمان ، والصدق آفة على المال ، وتصير الحظوة البالغة ، والنعمة السابغة ، فى المثالب الفاضحة ، والكذب المبرح ، والجهالة

المفرطة ، واليقين الضعيف) وكل من كانت هذه صفاته يستكمل سروره ، وتعتدل أموره ، ويفوز بالسهم الأعلب ، والحظ الأوفر والقدر الرفيع ، والأمر النافذ ، ثم يقول : « ثم نظرنا فى الوفاء والأمانة ، والنبل والبلاغة ، وحسن المذهب ، وكمال المروءة ، وسعة الصدر ، وقلة الغضب ، وكرم النفس ، والفائق فى سعة علمه ، والغالب لهواه ، فوجدنا (فلان بن فلان) ثم وجدنا الزمان لم ينصفه من حقه ، ووجدنا فضائله القاعة له قاعدة به ، فهذا دليل أن الفضل قد مضى زمانه ، وعفت آثاره ، ووجدنا العقل يشقى به قرينه ، كما أن الجهل يحظى به خدينه »

فإذا رجعنا إلى الشعر وجدنا عبيد الله بن عبدالله بن طاهر يقول

يا محنة الدهر كفى إن لم تكفى فحسبى
ما آن أن ترحمينا من طول هذا التشفى
فلا علومى تجدى ولا صناعة كفى
ثور ينال الثريا وعالم متخفى

وتمضى خطوات فى الزمن فنجد الطغرائى يقول

وأعظم ما بى أننى بفضائلى جرمت ومالى غيرهن ذرائع

وخطوة أخرى فإذا القاضى الفاضل يقول

ما ضر جهل الجاهلين ولا انتفت

وثالثة فإذا ابن دانيال يقول

كل من كان فاضلا كان مثلى فاضلا عند قسمة الأرزاق

فإذا جئنا إلى العصر الحديث وجدنا بعض شعراء الشباب يقول

عبث هذه الحياة وفوضى ما نراه فى هذه الأكوان
ولو ان الحياة تنظم شعرا جعلت شعرها بلا أوزان
ولو ان الحياة ترسل نثرا جعلت نثرها بغير معان

بعد هذه الرحلة الطويلة ذكرت رسالة بديع الزمان الهمذانى التى يقول فيها : (الشيخ الإمام يقول : فسد الزمان ، أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفى الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا بأولها ، أم فى المدة المروانية وفى أخبارها : لا تكسع الشول بأغبارها ، إنك لا تدرى لمن الفائج ، أم السنين الحربية

والسيف يعمد فى الطلى والرمح يركز فى الكلى

ومهبت حجر بالفلا والحرثان وكربلا

أم الأيام العدوية ، فتقول . هل بعد الزول إلا الزول ؟ أم الأيام التيمية وتقول : طوبى ان مات فى نأناة الإسلام ، أم على عهد الرسالة ، وقيل اسكتى يارحالة : فقد ذهبت الأمانة ، أم فى الجاهلية ولبيد يقول:

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بلاد بها كنا وكنا نحبها إذ الأهل أهل والبلاد بلاد

أم قبل ذلك وقد قال آدم عليه السلام

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

أم قبل ذلك والملائكة تقول (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ ؟

هذه هى الحياة

ولكن أليس فى الناس من ينظر إلى الأمام البعيد ، أليس فيهم من يثق بنفسه وإيمانه ، ويؤمن أن كل ما فى أيدى الناس من مال وجاه إنما هو باطل وزور ، وأنه مهما عظم لا يعدل حبة خردل تنتقص من كرامته ؟

أليس فى الناس من إذا أقدم على عمل تلمس فيه حكم الضمير والخلق ، وعرضه على ميزان الفضيلة والحق ؟

أليس فى الناس من يقنع بالقليل ، ويرضى بالكفاف ، ويحتفظ بما لنفسه من كرامة ، ويضن بها أن تكون مستعبدة للمنافع ، خاضعة لذل العيش ؟

بلى ؟ إن فى الناس من هؤلاء أعزة ، ولكنهم ـ غالبا ـ يعيشون على هامش الحياة ، فلا يلبث أحدهم أن ينطق كلمة الحق حتى تمسك الزبانية بتلابيبه ، وتهدد المكايد مركزه ، ويعيش فى هم ونكد ـ على ما يرى الناس ـ ولكنه يعيش من رضا ضميره ، وصفاء نفسه ، وسمو قلبه ، فى جنة وارفة الظلال ، وسعادة لا تعد لها سعادة

على العمارى

(١) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٠٠ ط . دار المأمون . هذا ومعروف عند الأدباء أن الشعر المنسوب لعاد وآدم لا أصل له .